وخز الضمير

ما لذع الافاعي ولسع العقارب وما طعن السيوف ووخز الرماح باشد فعلاً في المرء من وخز الضمير وانني محدثكم اليوم بحديث شاب رأيت فعل الضمير فيه وتأثير وخزاته رأي العين . ثم اعيذكم جميعاً من وخز الضمير في مثل الساعة التي ثار فيها على شارل فانه خير للمرء الف مرة ان يموت قبل ذلك

وشارل هذا فتى فرنسوي كان جميل الخَلق والخُلق فصيح المنطق وعى من العلم شيئاً كثيراً وكان يحترف الصحافة فحدث انه احب وهو ابن العشرين فتاة اسمها شارلوت ووعدها من نفسه الاحسان وعاهدها على الزواج فاخلف الوعد ونقض العهد وكانت العاقبة وبالاً عليها وعليه

لقيها في صباح يوم ماطر وكانت سائرة في لباس اسود بلا مظلة تحت المطر المنسكب مشمرة عن ساقين مستديرين قافزة كالغزال لاجتناب برك المياه والاوحال . فنظر اليها واذا هي الجمال متمثلاً في زي فتاة شقراء الشعر زرقاء العينين بفم كالخاتم وحاجبين كالقوسين

وعينين قال الله كونا فكانتا فعولين بالالباب ما تفعل الخمر

ففكر شارل في حيلة تمكنه من الوصول اليها ومحادثتها ليعرف من هي فلم يجد الا المظلة التي كانت في يده فتقدم اليها باسماً ورفع قبعته مسلماً وقال يا سيدتي لقد بلل المطر لباسك فهل تسمحين لي بان اجعل نفسي والمظلة التي معي في خدمتك الى ان تبلغي حيث تقصدين . فقالت بادب ورقة اشكرك

يا سيدي لكن الموضع الذي تقصده قدماي بعيد ولست احب ان اثقل على احد . قال مهما طالت الطريق فانها قصيرة معك . فعلت حمرة الخجل محيا الفتاة لهذا التلميح وساءها من هذا الغريب ان يبادرها بمثل ذلك الكلام دون سابق معرفة بينهما فقالت انني على كل حال شاكرة لك واليك يا سيدي عني

وكأن شارل لمح ان كلامه غاظها فقال استغفرك يا سيدتي عما بدر مني من الخفة في الحديث واسألك ان تقبلي الخدمة التي اقدمها لك . وانني آخذ العهد على نفسي بالا افوه امامك بكلمة لا يكون ملؤها الاحترام . فقالت لا حرج يا سيدي عليك لكنني سائرة الى موضع لا احب ان يرافقني اليه احد قال اسمحي لي ان اظلك من المطر الى باب المكان الذي تقصدينه فقط ثم انصرف دون ان اسألك عن شيء سوى عن اسمك واسم ابيك عساني ان احظى بمعرفته . فقالت اما اسمي فشارلوت واما ابي ... وسكتت وقد عاود محياها الاحمرار

فادرك شارل انها غير ذات اب معروف ونظر الى ذلك الجمال الباهر والصباء الناضر — فان شارلوت لم تجاوز الربيع السابع عشر — فتحركت في فؤاده عواطف الشفقة على تلك التي تحقق قول القائل ان الاباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون والتي يحق لها دون سواها ان تتغنى بقول ابي العلاء

هذا جناه ابي عليَّ وما جنيت على احد

وثارت في نفسه عوامل الحنو حتى كاد قلبه يسيل انعطافا اليها ثم بسم في وجهها وقال لا بأس ايتها العزيزة منذ الان اسمك شارلوت وانا أدعى شارل وانت صبية وانا شاب ولا يزال قلبي مطلقاً غير مقيد وحبذا لو يكون

فؤادك حراً . ومهما يكن من الامر فليس ههنا بالموضع الذي يجمل فيه الحديث فهل تتفضلين باعطائي عنوان والدتك لاقدم نفسي اليها

فقاضت عينا الفتاة بالدمع وقالت : امي ... انني ذاهبة لزيارتها لكنك لا تستطيع ان تأتي معي اليها . فاضطرب الشاب لبكاء الفتاة ولسماع ذلك القول منها وقال ولماذا فاجابت لانها منذ سنين في اللحد . وزادت بالبكاء

* * *

في مثل ذلك اليوم منذ سنين كاملتين اغمضت شارلوت عينيّ امها التي كانت لها في آن واحد أماً واباً وكانت لها كل قريب ونسيب ... ففتحت شارلوت عينيها للحياة في غرفة احد المستشفيات في باريس اذ استغوى امها ابن جار لابيها فلما بدت آثار زلتها هجرها ثم طردها ابوها كما تطرد الكلاب الجربة . ولما دنت الساعة الهائلة التي تصبح المرأة فيها أماً تركت المسكينة الابرة التي كانت منذ طردها ابوها وهجرها الذي كانت تحسبه زوجها وانكرها اخوتها مكبة عليها الليل والنهار لتكتسب من ورائها قوت يومها والتمست المستشفى فجاءت شارلوت بين اولئك الغرباء واكبت امها ولم تسكن بعد اوجاعها على ذلك الوجه الصغير تقبله وتغسله بالدموع . وسمتها شارلوت لان اباها الهاجر كان يدعى شارل وكانت الام التعيسة لا تزال مع خيانته وغدره حافظة في فؤادها ذكره

وكانت شارلوت تنمو في كمالة امها والجمال يكبر معها فلما بلغت خمسة عشر ربيعاً وبدت ورده ناضرة في حديقة الحسن والبها وصارت اهلاً لمساعدة امها في اعمالها نزلت بتلك الام الحنونة علة لم ينجع فيها الدواء ولا سهر شارلوت وعنايتها ولا البكاء

وسارت شارلوت وراء نعش امها وحيدة نادبة وعادت من عند ضريحها وحيدة باكية لا يمسح دمعها الجاري كفُّ والدٍ ولا يُذهب حزنها الدائم ابتسام شقيق ولا نسيب . وكانت شجاعة هذه الفتاة وعفتها تعدلان جمالها فوضعت بين اناملها ابرة امها واقامت تقطع الايام بالشغل والتذكار والبكاء وزيارة ذلك الضريح العزيز الى ان جاء تذكار يوم الوفاة للعام الثاني فاعدّت الازهار للضريح وهيأت مقلتيها للبكاء وخرجت تقصد المدفن وهي تقول أماه يا أماه فدهمها المطر وفاجأها شارل « الثاني » وما زال بها حتى رضيت بان يرافقها للقيام بذلك الفرض البنوي المقدس

* * *

اذا دخلنا المقبرة التي فيها مدفن ام شارلوت رأينا فتاة جاثية على ضريح يدل ظاهره على فقر اهله وتدل العناية به على ما تصل اليه ارادة شابة غيورة على ضريح امها . ثم رأينا شاباً لا على قرب ولا بعد منها واقفاً وثقة الاحترام حاسر الرأس خاشعاً . وكانت الفتاة تذرف الدمع السخين وهي راكعة تصلي وتبتهل الى الله ان يفتح ابواب نعيمه لذلك الملاك قائلة في ختام صلاتها يا اماه انك تنظرين اليّ من السماء التي انت فيها دون شك وتقرئين ما في ضميري وفؤادي فهل سلوتك ساعة وهل سهوت طرفة عين عن تذكرك يا اماه انني لم ازل محتفظة بوصاياك مستمسكة بالفضيلة عائشة كما تحبين ان اعيش بين الشغل والعفاف وتذكارك فاسبغي عليّ يا اماه من العلو الذي انت فيه بركاتك الوالدية التي تحفظني في غيبتك كما كنت تحفظينني في هذه الدنيا وتكون لي درعاً اتقي بها سهام التجارب .. يا اماه يا ملاكي الحارس اذا كان شارل كاذباً في وعده فابعديه عني واذا كانت الساعة التي لقيته فيها ساعة سوء

فاجعلي ان لا القاه مرة اخرى . يا اماه انني لم اعرف وجه ابي وقد قلت له انه مات منذ زمن بعيد ثم انك قد تركتني في هذا العالم وحيدة فلتكن روحك الطاهرة مرفرفة على الدوام حولي حارسة لي واقية اياي من كل ما لا تحبينه لي ولا يرضيك مني صدوره عني . يا اماه

حينئذٍ دنا شارل منها وكان بادي التأثر واخذ بذراعها وقال كفى وانهضها فنهضت والدمع يتناثر من مقلتيها وقد زادها البكاء حسناً وبهاءً والقت على الضريح نظرة اخيرة وتبعت الذي صارت تحسبه منذ تلك الساعة خطيبها

* * *

ننتقل بالقارئ الى ما بعد سنة من التاريخ الذي لقي فيه شارل شارلوت الى ما وراء سنة من ذلك الحب الخالص الذي ملأ فؤاد الفتاة وصيرها تعبد مع الله وتذكار والدتها ذلك الشاب الحبيب . الى ما وراء سنة كاملة لم ينقض منها الشهر التاسع حتى صارت الفتاة مثل امها اماً غير شرعية لصبي لهُ والدٌ ولكن ليس له اب

اصغت الفتاة لحديث شارل وفتنها حبهُ حتى استسلمت اليه على وعد بالزواج وهي الساذجة القلب الصافية النية الجاهلة للا كاذيب والحيل والغدر فكان ما كان مما اشرنا اليه وصارت تنظر الى وجه الوليد باسمة فرحة قائلة مبارك انت اليها الرباط الذي يقيده بي الى الابد ...

ولما غدت الفتاة اماً زاد حبها لابي ولدها وزادت تعلقاً به وصارت تقضي الايام وتقطع الليالي وتعد الساعات والدقائق التي بينها وبين اليوم الذي تنتقل فيه من حال الى حال

ولقد جاء ذلك اليوم بعد سنة من معرفتها لشارل وكان ابنها قد صار

ابن ثلاثة اشهر ... حان اليوم الذي انتقلت فيه المسكينة دفعة واحدة ولكن من حال الامل والرجاء الى حالة اليأس والقنوط

وذلك ان النذير جاءها في الصباح منبئاً بان شارل الذي ترجوه وتنتظره وكان الى مساء اليوم الذي مضى يزورها ويعدها ويبتسم في وجهها ووجه ابنها ليس الا كاذباً مخادعاً غادراً فانه خطب منذ شهرين فتاة غنية وهو يتهيأ في صباح ذلك اليوم لموافاتها الى الهيكل حيث يعقد لهما القران

سمعت الفتاة هذا الخبر فادركت معنى كلمات فاه بها شارل عندما فارقها في مساء اليوم السابق اذ قال لها ان الاشغال تقضي علي بالتغيب اسبوعا كاملاً فلا تنتظريني ولا تهتمي للسؤال عني ... مسكينة شارلوت كم مرة غسلت في تلك الساعة وجه ابنها بدمعها

ثم نهضت فلبست الملابس البيضاء التي خاطتها يداها وطرزتها انامل واعدتها ليوم عرسها والبست الطفل حلة من الدمقس وكتبت الى شارل تقول

السلام ايها الحبيب الغادر ... وعدتني فاخلفت الوعد وعاهدتني فنقضت العهد ولست بموجهة اليك كلمة ملام واحدة لانك لست الملوم . يصل كتابي اليك وانت امام الهيكل الى جانب التي اخترتها لتجعلها سعيدة بقربك وهي قد وضعت يدها بيدك جاهلة ان هناءها ينزل التي كانت ترجوك الى القبر . فلتكن اسعد حالاً من ام ولدك ولتجهلن طول حياتها الشقاء والغم اذا كانت تنقذ من الموت طفلاً ذا ثلاثة اشهر تجده اذا شاءت مطروحاً الى جانب جثة امه التي تفيض انفاسها على ضريح امها في الساعة التي تتلو يا شارل هذه الاسطر فيها

لما اتم الكاهن الصلاة وقرن بين شارل وعروسه واخذ الناس يتقدمون لتهنئتهما اقبل رسول يحمل الى شارل كتاباً فظنوه كتاب تهنئة من صديق غائب . لكن شارل القى نظره على العنوان فانقبض صدره ووجف قلبه وفض ختام الرسالة ثم صاح يا شارلوت واندفع كالمجنون نحو الباب تاركا عروسه و لاهل والاصدقاء في حيرة وغم واضطراب

وخرج معه بعض اهله واخص اصدقائه وما زالت المركبات تجري بهم حتى بلغوا المدفن الذي فيه ضريح ام شارلوت وهناك المؤلم الفاجع . ضريح كلله الزهر وفي احد اكاليله طفل يبكي كأنما هو ينادي امه التي مزق الرصاص احشاءها فسقطت على ذلك الضريح كأنها تعانقه بذراعيها

واندفع شارل يجري الى ذلك الموقع وكان السابق اليه فلما رأى شارلوت وقد فارقتها الروح ثار وخز الضمير فيه حتى كاد يجن ومال على الطفل فقبله كثيراً ثم على قتيلة خيانته فغسل جرحها بالدمع وتناول المسدس الذي سقط من يدها ووجهه الى قلبه قبل ان يتمكن احد رفاقه من منعه وفي اقل من لحظة سقط جثة لا حراك بها على جثة التي احبته وماتت لاجله

وكان من امر عروسه ان هذه العذراء صارت في الحال اماً ارملة فلبست الحداد وتبنت الطفل واعطته اسم ابيه ولقبه وقامت على تربيته فلم تفارقه ولم تفارق السواد وهي تخرج به الان الى النزهة فلا يراهما احد ويشك في انها امه وانه ابنها الوحيد . وفي كل يوم خميس وهو اليوم الذي وقع فيه الحادث الكبير الذي جعلها اماً وارملة قبل ان تصير امرأة تقوده الى المدفن حيث ضريح شارل وشارلوت وهو يحسب انه جاثٍ مع امه على ضريح ابيه

فقط فاذا رآها زادت بالبكاء طوق عنقها بذراعيه الصغيرين وقبلها بحنو قائلا لا يا أماه لا وانهضها وهو لا يعرف ان امه مع ابيه تحت ذلك الثرى

خليل زينيه

ما قيل عن المرأة

المرأة صنعة يدي حاذق

المرأة تقول الحق دائماً ولكن ليس كل الحق

الحب طائر يغرد في قلب المرأة

لا يبدأ عمل عظيم بغير امرأة

ليس اسهل من اقتياد المرأة اذا اخذ الرجل بيدها

المرأة مثل ظلك تجري وراءها فتهرب وتهرب منها فتتبعك

الحب يقلل من لطف المرأة ويزيد في لطف الرجل

يسر المرأة ان تكون طائعة ولذلك لا تود الرجل الذي تشتد ضراعته اليها

لو خلقت وجوه النساء كلهن على قالب واحد لكان القالب مدفناً للحب

لا يحب الرجل دائماً من يحترمه واما المرأة فلا تحترم الا من تحب

لو لم يبق في الوجود الا امرأة واحدة لبقيت اشياء تقال عن المرأة

قال فونتنل ثلاثة احبها دائماً ولا افهمها وهي التصوير والموسيقى والمرأة

يشتد نجاح الرجل بدون امرأة ولا سيما في الانشاء